

محاضرات وكلمات توجيهية

تم تحميل هذه المادة من موقع:

الأستاذ الدكتور سليمان بن قاسم العيد

<http://fac.ksu.edu.sa/saleid1>

بسم الله الرحمن الرحيم

قسوة القلوب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً والحمد لله على كل حال . أما بعد فإن للقلب مكانة عظيمة ، فهو ملك الأعضاء ومصدر سعادتها وشقائها ، ومصدر صلاحها وفسادها ، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » . ففي هذا الحديث دليل على أن صلاح أعمل العبد بحسب صلاح القلب وفسادها بحسب فساد القلب ، فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا ينفع عند الله غيره { يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم } .

معنى قسوة القلب :

من (ق س و) قَسَا قلبه غلظ واشتد يقسو قَسَاءً بالفتح والمد و قَسُوَّةً و قَسَاوَةً أيضا ، جاء في اللسان قال أبو إسحق في قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك تأويل قست في اللغة غلظت وييست ، فتأويل القسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه و قسا قلبه قسوة و قساوة و قساء بالفتح والمد وهو غلظ القلب وشدته .^(١) قال ابن القيم : وأما القسوة فيبس في القلب يمنع من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثير بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله^(٢) .

وقوة القلب المحموده غير قسوته المذمومة فانه ينبغي أن يكون قويا من غير عنف ولينا من غير ضعف وفي الأثر القلوب آنية الله في أرضه فأحبها الى الله أصلبها وارقها وأصفها .

نتيجة قسوة القلب

١ - علامة الشقاء ، لحديث أنس رفعه أربعة من الشقاء جمود العين وقسوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا أخرجه البزار.^(٣)

(١) لسان العرب ١٥/١٨١ . والصحاح ١/٢٢٤ .

(٢) الروح ج ١ / ٢٤١ .

(٣) فتح الباري ١١/٢٣٧ .

٢- يكون صاحبه أخط من البهائم ، ويكون مآله إلى جهنم ، قال تعالى { ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون } .

٣- ذم الله لأصحاب القلوب القاسية المنافية للخشوع في غير موضع فقال تعالى: { ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة } . قال تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وقال تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وقال تعالى ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال هذا بمرضه وهذا بقسوته وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه وقبل الحق بإخباته ورقته وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته فقال تعالى عقيب ذلك وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط .

٤- البعد من الله ، عن عبد الله بن دينار عن بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله عز وجل فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله عز وجل قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي^(٤).

٥- من آثاره القسوة تحريف الكلم عن مواضعه وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب

٦- ومنها نسيان ما ذكر به وهو ترك ما أمر به علما وعملا. ومن آثار الأخبات وجل القلوب لذكره سبحانه والصبر على أقداره والأخلاص في عبوديته والإحسان إلى خلقه.

أنواع القلوب

قسم ابن القيم القلوب إلى ثلاثة^(٥) : -

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج ٤/ص ٢٤٥ ٤٩٥١

(٥) انظر : شفاء العليل ١٠٦/١ .

١ - قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة، فهذا لا ينفعل بمنزلة الحجر. لا تلين للحق اعترافا وإذعانا ، لا تقبل ما يثبت فيها ولا ينطبع فيها الحق ولا ترسم فيها العلوم النافعة ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة.

٢ - وقلب مائع رقيق جدا ، وهو بمنزلة الماء وكلاهما ناقص .

٣ - القلب الرقيق الصافي الصلب، وهو أصح القلوب، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه وبقبله ويؤثره برقته ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته.

وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه فهذان القلبان شقيان معذبان ثم ذكر القلب المحبت المطمئن إليه وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به قال الكلبي فتخبت له قلوبهم فترق للقرآن قلوبهم وقد بين سبحانه الأخبات ووصف المحبتين في قوله وبشر المحبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون فذكر للمحبتين أربع علامات وجل قلوبهم عند ذكره والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة وصبرهم على أقداره وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرا وباطنا وإحسانهم إلى عبادته بالإنفاق مما آتاهم وهذا إنما يتأتى للقلب المحبت قال ابن عباس المحبتين المتواضعين وقال مجاهد المطمئنين إلى الله وقال الأخفش الخاشعين وقال ابن جرير الخاضعين قال الزجاج اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض وكل محبت متواضع فالأخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله ، فإن قيل كان معناه التواضع والخشوع فكيف عدى بالي في قوله وأخبتوا إلى ربهم قيل ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا وهذه عبارات السلف في هذا الموضع والمقصود أن القلب المحبت ضد القاسي والمريض وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب محبتا إليه وبعضها قاسيا

أسباب قسوة القلب

١ - الإكثار من الكلام بغير ذكر الله (سبحانه وتعالى) ، فعن عبد الله بن دينار عن بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكثروا الكلام بغير ذكر

الله عز وجل فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله عز وجل قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي^(٦).

- ٢ - أكل الحرام ، فإن المطعم الخبيث يغذي تغذية خبيثة .
- ٣ - فعل المعاصي ، فإن المعاصي تؤثر في القلوب وتمرضها ، قال تعالى { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون } . وقد ورد في الحديث أن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقلت تلك النكتة ، وإلا تزدت وعظم خطرهما في القلب .
- ٤ - ومنها استماع مالا يجوز استماعه من الكلام المحرم ، وعلى رأسها الغناء الموسيقى ، وهي صوت الشيطان وأداته لجذب جنوده ، قال تعالى { واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا } فالمراد بصوته هو الغناء .
- ٥ - منها النظر المحرم ، قال (صلى الله عليه وسلم) « النظره سهم مسموم من سهام إبليس » . وقال تعالى { قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون } .
- ٦ - الذنب ، و أقساه الذنب ويقال الذنب مقساة للقلب . و أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وكذلك العمل السيء مثل الكذب مثلا يعاقب صاحبه في الحال بظلمة في القلب و قسوة و ضيق في صدره و نفاق و اضطراب و نسيان ما تعلمه و إنسداد باب علم كان يطلبه و نقص في يقينه و عقله وإسوداد و جهه و بغضه في قلوب الخلق و إجترائه على ذنب آخر من جنسه أو غير جنسه و هلم جرا إلا أن يتداركه الله برحمته .
- ٧ - كثرة الأكل ، والأوجه أن يكون هذا تحضيضا للمؤمن على قلة الأكل وتحامي ما يجره الشبع من قسوة القلب والرین وطاعة الشهوة البهيمية وغير ذلك من

- أنواع الفساد وذكر الكافر ووصفه بكثرة الأكل إغلاظ على المؤمن وتأکید لما رسم له وحضه عليه وناهيك زاجرا قوله تعالى ويأكلون كما تأكل الأنعام .
- ٨ - الإعراض عن قبول الحق بعد معرفته له قال تعالى { فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين } . وقال { ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون } .
- ٩ - إفراط في الممازحة ، أخرج الترمذي من حديث بن عباس رفعه لا تمار أخاك ولا تمازحه الحديث والجمع بينهما أن المنهي عنه ما فيه إفراط أو مداومة عليه لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكر في مهمات الدين ويؤدي إلى قسوة القلب والإيذاء والحقد وسقوط المهابة والوقار والذي يسلم من ذلك هو المباح فإن صادف مصلحة مثل تطيب نفس المخاطب ومؤانسته فهو مستحب.^(٧)

علاج قسوة القلب

- ١ - الإقبال على الله وتلاوة كتابه العزيز وتدبره والاشتغال بذكره فقد قال تعالى {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب } . وقال {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون } . وقال {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق } .
- ٢ - مجالسة الصالحين ومخالطتهم والافتداء بهم .
- ٣ - الاستماع إلى المواعظ والتذكير بجحد والمحافظة على صلاة الجمعة والجماعة.
- ٤ - النظر والتفكر في مخلوقات الله وما فيها من الحكم .
- ٥ - النظر في عواقب الظلمة والمفسدين وما أحل بهم من العقوبات ، قال تعالى {فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان

يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور { .

٦ - تذكر الموت والموتى، عن محمد بن قدامة قال كان الربيع بن خيثم إذا وجد من قلبه قسوة أتى منزل صديق له قد مات في الليل فنادى يا فلان بن فلان يا فلان بن فلان ثم يقول ليت شعري ما فعلت وما فعل بك ثم يبكي حتى تسيل دموعه فيعرف ذاك فيه إلى مثلها.

٧ - مسح رأس اليتيم ، عن محمد بن واسع أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان أن رجلا شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أردت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطعمه . لأحمد من حديث أبي هريرة أن رجلا شكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال اطعم المسكين وامسح رأس اليتيم.^(٨)

٨ - الموعظة التي تلين القلوب القاسية وتدمع العيون .

٩ - العمل الصالح مثل صلاة أقبل عليها بقلبه و وجهه و أخلص فيها و راقب و فقه ما بنيت عليه من الكلمات الطيبات و الأعمال الصالحات يعقبه في عاجل الأمر نور في قلبه و إنشراح في صدره و طمأنينة في نفسه و مزيد في علمه و تثبيت في يقينه و قوة في عقله إلى غير ذلك من قوة بدنه و بهاء و جبهه و إنتهائه عن الفحشاء و المنكر و إلقاء المحبة له في قلوب الخلق و دفع البلاء عنه و غير ذلك مما يعلمه و لا نعلمه، ثم هذه الآثار التي حصلت له من النور و العلم و اليقين و غير ذلك أسباب مفضية إلى آثار آخر من جنسها و من غير جنسها أرفع منها و هلم جرا و لهذا قيل أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

علاج / فتح الباري ج ١١/ص ١٥١، و وسنده حسن.

(٨) قال ابن حجر في الفتح ١٥١/١١: سنده حسن . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٠/٨ : رجاله رجال الصحيح .